حتمية الاغتراب ـ ٢

★★★★★ والتر كاوفمان ★★★★★ ترجمة : كامل يوسف

٤ ـ الادب والفن *

الفلاسفة العظام هم على وجه التحديد رجال لا يمثلون غيرهم . ولكن أولئك الفلاسفة الذين بحثنا أمرهم حظيت أعمالهم بالترحيب وقرأها الكثيرون وعكفت أجيال من الدارسين على كتبهم . والكتاب الكبار هم بالمثل رجال لا يقاس عليهم ، ولكنه من المألوف القول بأن الكتاب المعاصرين مغتربون ، كما يسود الاغتراب عمليات تقديم الكتب والنقد الادبي . وعادة ما تستخدم هذه الكلمة بمعنى واسع الى حد انه يبدو من الافضل أن نشير الى المدى البعيد الذي يذهب اليه هذا الاصطلاح في غموضه وعدم وضوحه والمعاني العديدة المختلفة التي استخدم للاشارة اليها ، ذلك اذا كان المرء يأخذ مثل هذه الكتابات بجدية ، ولكن قد نلقي الضوء اذا ما وضحنا على الاقل بصورة موجزة الى أي حد كانت بعض الظواهر التي نناقشها هنا جوهرية في أعمال عدد من كبار كتاب الماضي ، وكما فعلنا بالنسبة للفلاسفة فسوف نقصر اهتمامنا على كتاب من الطراز الاول ، ولسوف ننحي جانبا أولئك المغتربين الواضحين من أمثال يوربيديس وفيلون وبودلير وبو .

وربما يبدو غوته مثالا أول طيبا لنا : فاذا ما كان التمرد ضد ما هو قائم علامة على الاغتراب لتعين علينا أن نعتبر غوته الشاب مثالا للاغتراب ، فقد انتحر فيرتر بطل أولى قصصه ، وعلى امتداد أوروبا انتحر عدد كبير من الشبان وفي يد كل منهم أو في جيبه نسخة من هذه القصة . أما غونتر بطل مسرحية غوته « العاصفة » فقد أطلق أعلى صرخات الرفض في اللغة الالمانية ، مظهرا احتقار الشاعر للتفكير ، وقد كان كلا الكتابين معارضة لما هو قائم ولقيا نجاحا فوريا جعل من المؤلف بطل الجيل الشاب .

هل ثمة معنى لبحث اشمئزاز فاوست الفامر بميل اكاديمي لاثبات اغترابه أو بالاحرى اغتراب الشاعر ؟ الاجابة بالسلب ، ولكن ذلك هو النحو الذي غالبا ما يستخدم المعاصرون هذا الاصطلاح به ، وهل هناك معنى لدراسة صيحة فاوست الشهيرة التي نقلت ونوقشت في رواية ستيبان وولف لهيرمان هسه حيث يقول :

> ثمة روحان يقطنان ، ويا للحسرة ، في صدري
> ويناضل كل روح منهما للتخلص من توأمه .

فهل هذا الانقسام مؤشر للاغتراب ؟ من المؤكد انه يحول دون شعور المرء بالتوافق مع ذاته ، حيث ان كل روح ينظر الى الآخر باعتباره غريبا ، ولكن اذا ما كان ذلك اغترابا فمن هو ذلك الذي لا يشعر بالاغتراب ؟ ان ذلك يتفق بالتأكيد مع المعنى دونما عمق روحي على الاطلاق بل وبغير روح بالمرة .

واذا ما ربطنا الاغتراب ابتداء بشعور عميق بالغربة عن رفاق المرء وعن المجتمع فان المرحلة التي أصبح فيها غوته مثالا للاغتراب تتوافق تماما مع تلك الفترة التي طارت فيها شهرته الى عنان السماء حينما اعتبر غوته صرحا يحمل ما هو قائم . ومنذ البداية كتبت مسرحية فاوست دونما اعتبار لامكانية ادائها على خشبة المسرح ، وحينما أصبح غوته مديرا لمسرح فيمار قدمت مسرحيات وأوبرات عديدة ، ولكن مسرحية فاوست لم تقدم على الاطلاق . وقد بدأ غوته كتابة هذه المسرحية في السبعينات من القرن الثامن عشر ونشر شذرات منها في عام ١٧٩٠ ، وظهر الجزء الاول بأكمله عام ١٨٠٨ ، ولكن الجزء الاول لم يقدم في عرض مسرحي حتى ١٨٢٩ حينما وصل غوته الى أوج الثمانين من عمره وأراد الناس تكريمه ، وحتى في ذلك الوقت فقد اختصرت المسرحية بصورة قاسية وقدم العرض الاول للجزء الاول بأسره في عام ١٨٧٦ .

ولم يقصد من الجزء الثاني على الاطلاق أن يقدم

* راجع القسم الاول من هذا المقال في العدد الماضي من الآداب .

كعرض مسرحي ، وحينما تم الانتهاء منه قبيل وفاة غوته بقليل : أي بعد مرور ٦٠ عاما من بدئه لمشروع المسرحية ، قام بتغليف المخطوط وختمه بالشمع ، ورفض أن يكشف سر النهاية حتى لأصدقائه المقربين وموضع ثقته . فلم تكن لديه الرغبة في أن يرى رائعته وهي تقدم على المسرح ، ولم يرغب في أن تنشر الا بعد وفاته . فما كان يود ان يشاركه فيها احد ، فاذا لم يكن هذا هو الاغتراب عن المجتمع فماذا يمكن أن يكون ؟

وقد يقول البعض : « أجل . غير ان اغتراب الكاتب المعاصر أعمق من هذا بكثير . فعلى الرغم من ان جيمس جويس على سبيل المثال قد نشر ما كتبه الا انه كان معتربا الى حد انه كان من الممكن ببساطة الا ينشره لانه لم يكن هناك جمهور في نظره حتى لفظ أنفاسه الاخير » . ولكن ذلك ليس حقيقيا في حالة رواية « اوليس » الصادرة في ١٩٢٢ التي اميت اعجابا دونيا قبيل وفاة مؤلفها عام ١٩٤١ بوقت طويل ، كذلك لم تنتظر روايته « فينجانز ويك » الصادره في ١٩٣٩ طويلا تناثر التعليقات وقدرا كبيرا من اهتمام النقاد، وأصبحت مسرحية « في انتظار جودو » لصمويل بيكيت الصادرة في ١٩٥٤ والتي تعتبر أحد معالم طريق الاغتراب عملا كلاسيكيا بصوره فورية يقرأ ويعرض على خشبة المسرح كاملا من قبل عدد كبير من الاشخاص في العديد من الدول المختلفة . ومن ناحية اخرى فقد كان غوته يعرف تماما ان الجزء الثاني من مسرحية فاوست لن يحظى أبدا بجماهيرية كبيرة وانه سيكون أكثر سعادة اذا لم يطالع ما سيكتب النقاد والمثقفون حوله . وفي الحقيقة كان هذا العمل سابقا لعصره أكثر مما كانت روائع صمويل بيكيت وجيمس جويس سابقة لعصرها بأكثر من قرن من الزمان .

لقد عاش غوته على الاقل على مشارف العصر الحديث . فدعنا نأخذ دانتي أعظم شعراء العصور الوسطى كمثال ثان لنا في مجال الادب . غالبا ما ينظر الى العصور الوسطى بطريقة عصابية على انها زمن أكثر سعادة ، ساده التناسق والاندماج . ولسنا بحاجة الى التركيز على الجانب المظلم من تلك الفترة ، أي على طابعها الاسطوري واللاانساني كما يتضح على سبيل المثال في اضطهاد اليهود الخارجين عن الدين . وكان دانتي مثالا للاغتراب ، وعمله المسمى بـ « الحياة الجديدة » هو دراسة حالة من الاغتراب عن الذات ونظرة المرء الى ذاته كمخلوق غريب ، وكوميدياه الالهية هي عمل مغترب ، أو اذا شئنا القول حرفيا ، فهي عمل رجل منفي استنزفته المرارة . انه يبدع جحيما شاسع الارجاء ويجعله يحفل برفاقه بما في ذلك الذين يحتلون مركز الصدارة في اطار الوضع القائم .

واذا كان الاغتراب يرتبط بصورة أقوى بالانفصال على الصعيد الفني عن الزمن الذي يعيش فيه المرء ، وان المقصود هو عدم القابلية للتواصل . فان هذا الوصف يطبق كذلك وبصورة كاملة على دانتي ، فكم من معاصريه كان بوسعهم استيعاب عمله ، وكم من القراء استطاعوا ذلك منذ عصره ؟

ان أولئك الذين ينظرون في حنين الى الماضي يضعون اما عصر دانتي أو عصر اثينا القرن الخامس في مكانة فريدة . فدعنا اذن نختار مثالنا من هذه الفترة الحافلة في تاريخ الادب الاغريقي ، وبالتحديد مسرحية « أوديب طاغية » لسوفوكليس .

يبدو لنا سوفوكليس باعتباره المثال النموذجي للشاعر غير المغترب ، فقد حظي بتقدير معاصريه بصورة كبيرة ، وعادة ما كانت أعماله التراجيدية تفوز بالجوائز الاولى أو الثانية ولم تفز أبدا بالمرتبة الثالثة ، كما اضطلع كذلك بمناصب هامة وحظي باحترام بالغ كرجل له مكانته . وقد قبلت مسرحيته « أوديب طاغية » باعتبارها عملا عبقريا ، واعجب بها أرسطو باعتبارها أفضل تراجيديا كتبت على الاطلاق ، وهو تقدير لا يزال قائما حتى الآن . وفي الوقت نفسه فان من الواضح ان الجاذبية المستمرة للمسرحية ترجع لا الى مهارة سوفوكليس الفنية وقدرته على البناء المسرحي فحسب ، ولكن كذلك الى الشخصية المحورية للمسرحية التي يرى سوفوكليس بصورة خاصة انها تواصل معاودة أذهان البشر ، ذلك اننا نشعر انه يمثلنا بمعنى ما من المعاني ، وأن المأساة التي يعيشها رغم انها اكثر اتساعا في نطاقها من الحياة ، فانها المأساة التي نعيشها دون أن يكون ذلك بالضرورة على نحو ما يشير فرويد .

ان أوديب هو الاغتراب مجسدا ، فقد حذرت الآلهة أباه من الانجاب ، وجاء أوديب الى العالم غير مرغوب فيه ، ومن ثم فقد ربط كاحلاه وألقي به للطبيعة المعادية ليموت ، وحينما انقذه احد الرعاة نشأ في كورنثه غريبا دون أن يعي ذلك ، وليتجنب تدنيس الطبيعة وانتهاك أقدس صور التناسق في الكون غادر كورنثه في طريقه الى منفاه الاختياري ، وعلى الرغم من ذلك فقد ارتكب ما يعتبره الاغريق — دون أن ينفردوا بذلك — أكثر الاعمال شذوذا واثارة لسخط الطبيعة والمجتمع .

وفي ثيبه — التي كان أحد أبنائها — افترض انه غريب عنها ، وحينما اكتشف هويته وما جنته يداه وانه ليس غريبا على الاطلاق ، طلب أن يلقى به خارج المدينة . فهل يمكننا أن نعتبر مثل هذا الرجل المختال والفخور بنفسه مغتربا ؟ اننا اذا بحثنا عن عبارة نصدر بها مسرحية سوفوكليس فلن يكون بوسعنا أن نعثر على عبارة أفضل من تلك التي قالها هيراقليطس « عن

نفسي أبحث » . ذلك ان أوديب غريب عن نفسه . وحينما يكتشف هويته يمتلىء بالكراهية الى حد انه يفقأ عينيه ، بل انه يقول انه يرغب في أن يكون بوسعه أن يطيح بسمعه أيضا ويقطع آخر الروابط التي تصله بالعالم وبرفاقه من البشر .

وأيا كان من يريد فهم الاغتراب ويتساءل عما اذا كان ظاهرة حديثة بصفة أساسية ، فعليه أن يتأمل الجاذبية الدائمة لهذه التراجيديا ، أتراها كانت تعاود مخيلة البشر بهذا التوتر لو كان الاغتراب عن الكون والمجتمع والذات أمرا غريبا عن معظم البشر حتى وقت قريب ؟

واذا ما كانت هناك مسرحية جذبت الكثيرين على نحو ما فعلت مسرحية « أوديب طاغية » فان هذه المسرحية ستكون بالتأكيد مسرحية « هملت » . واذا ما كان هناك بطل يسيطر على احدى المسرحيات الدرامية باحساسه الشامل بالاغتراب ، فذلك هو هملت .

وربما كانت كافة الاعمال التراجيدية تعالج الاغتراب بطريقة أو بأخرى ، ومن المستحيل أن نقرر ذلك دون فكرة واضحة عما يهم أو لا يهم فيما يتعلق بالاغتراب . لكن مسرحية « هملت » تقدم كافةالاشكال التي يعتقد بوجودها للاغتراب بصورة تقريبية ، فهملت ينظر الى نفسه ورفاقه والمجتمع الذي يعيش فيه بنوع من المقت ، وقد وجدت أجيال من القراء ان حالته تنطبق عليهم ، واذا ما كانت من بينهم نسبة مئوية عالية من الشبان والكتاب والفنانين فاننا يجدر بنا ان نتساءل عما اذا كانت هذه المجموعات دائما عرضة لان تشعر بصورة اكثر حدة بما يسمى الآن بالاغتراب .

وقد يثار الاعتراض بأنه في الماضي وبصورة نسبية كانت هناك قلة محدودة من الكتاب والفنانين يشعرون بالاغتراب بصورة عميقة ، بينما يشعر الكثيرون منهم بالاغتراب في القرن الحالي . وتتعقد هذه المسألة بصورة أكبر من جراء حقيقة ان عالم اليوم يحفل بالكثير من الكتاب والفنانين على نحو يتجاوز أي عصر مضى ، وكذلك فنحن نفتقد المعرفة التفصيلية بحياة وشخصيات كتاب وفناني الماضي وبصفة خاصة المعلومات التي تدور حول مجموع أولئك الذين لم يقدر لهم الانتماء لكتاب وفناني الطبقة الاولى . ان ذلك يجعل اجراء المقارنات أمرا بالغ الصعوبة ، ولكنه يبدو انه يمكن العثور على نماذج للكتاب والفنانين شديدي الغربة والاقل اغترابا في العصور السابقة وكذلك في القرن العشرين . وهكذا فان ليوناردو دافنشي ومايكل أنجلو يبدوان وقد شعرا باغتراب أعمق من رودان ورينوار . ولكن مثل هذه المقارنات التي تعقد بين رجال لهم طابعهم الاستثنائي وبالتالي لا يمثلون غيرهم ليست في موضعها هنا ، فأولئك الذين يثيرون الكثير من الجدل حول الاغتراب عادة ما يضعون في أذهانهم جماعات أكبر من الناس .

وربما كان من الاكثر جدوى أن نتساءل عما اذا كان الاغتراب لا يميز موقف الجمهور الحديث أكثر من موقف الفنانين ، فغالبا ما يشار الى ان الجمهور لم يعد ينظر الى الاعمال الفنية باعتبارها لوحات أو تماثيل . وبدلا من ذلك فان هذه الاعمال ينظر اليها باعتبارها سلعا منتجة للسوق واستثمارات أو رموزا لمكانة الفرد . وهكذا فان الانسان المعاصر مغترب عن الفن . وتلك هي القناعة التي تبناها كثيرون من منتقدي المجتمع الرأسمالي .

ان من السهل ايجاد امثلة للاغتراب في المجتمع الرأسمالي الحديث ، ولكن ما من دليل هناك على ان الناس في الدول الشيوعية تربطهم علاقة أكثر الفة بالفن ، كما انه ليس من الواضح على الاطلاق ان الموقف الذي يوصف غالبا بأنه اغتراب عن الفن وانه حديث هو موقف معاصر بصفة خاصة ، أفلم ينظر فراعنة مصر وملوك أوروبا وسادة عصر النهضة والباباوات ومواطنو شمال أوروبا الاثرياء الى اللوحات الفنية والتماثيل باعتبارها رموزا لمكانة الفرد ؟

وقد أبدى بيتهوفن اهتماما كبيرا بالنظر الى فنه والى الفنانين بصفة عامة في ضوء جديد ، ان ذلك لا يعني بالطبع انه كان يشعر بالاغتراب بصورة تقل عن سابقيه ، بل على العكس فقد كان يحس بأنه مغترب بصورة لا تطاق ، وتقدم معزوفته المعروفة باسم « عهد الميجنشتات » شاهدا بليغا على الطريقة التي أسهم بها صممه في احساسه العميق بالاغتراب عن الآخرين . وبوسع المرء أن يذهب الى القول بأن أولئك الذين عاملوا الفنانين بالطريقة التي أبدى بيتهوفن بنجاح احتجاجه ضدها كانوا أقل اغترابا عن الفن مما كان عليه جمهور أواخر القرن التاسع عشر وجمهورنا المعاصر . أما اليوم فان الفنان انسان منعزل ولم تعد الموسيقى والفن من متطلبات الحياة الاساسية .

لقد استخدم اصطلاح الاغتراب بصورة تفتقر الى التمييز بشدة الى حد انه ليس من الواضح من هو ذلك الذي يفترض انه مغترب : القلائل الذين قرأوا كافكا ويوربيديس بفهم ، أم أولئك الذين يعتبرون أمثال ادوارد أولبي واندي فارول كتابا عظاما ، أم تلك الكثرة

التي طالعت مقالات « ريدرز دايجست » أو أفضل الكتب مبيعا بصورة عرضية ؟ واذا كانت المجموعة الاخيرة هي المغتربة فماذا نقول عن الاغلبية الكاسحة من معاصري رمبرانت وموزارت الذين لم يسمعوا الكثير عنهما ؟

ترى من الاكثر اغترابا : كاتب يعيش في الولايات المتحدة وليس لديه في عام ١٩٧٠ جهاز تلفيزيون ، أم شخص يقضي الكثير من وقته في مشاهدة التلفيزيون ؟ من الواضح أن من لا يتوافق هو الاكثر اغترابا عن مجتمعه ، ولكن ربما كان أولئك الذين يتوافقون مغتربين عن أنفسهم .

وبالنسبة لاولئك الذين يهتمون بصياغة مفهوم للطبيعة الانسانية الحقة ويفترضون ان الانسان اساسا خلاق بطبيعته على نحو ما فعل ماركس الشاب ، فان من الواضح ان من يشاهد التلفيزيون في وقت فراغه مغترب عن ذاته . والاغتراب عن الذات هو اكثر اشكال الاغتراب قاعدية ، وليس من قبيل المبالغة القول بأنه وفق هذه الرؤية فان كافة الشرور تنبع من ذلك .

٥ ــ حلم ماركس

تجذب النزعة الانسانية لدى ماركس الشاب الاهتمام ، وتجد قناعته بأن أسوأ سمات الحياة العصرية هي انتزاعها لانسانية الانسان صدى واسعا ، ولكن منطقه يواجه اعتراضات عديدة ، فاولا وكما أظهرت الامثلة التي ضربناها من السذاجة الافتراض بأن كافة أشكال الاغتراب تنبع من شكل واحد اساسي وان من يتحرر من هذا النمط من الاغتراب عن الذات لن يعاني بعد ذلك من الاغتراب . ان الامر على العكس من ذلك ، فالشخص الخلاق ربما يحكم كونه كذلك شخصا غير متوافق يضع التقاليد موضع التساؤل أو يخرج عنها ، وكلما كانت أصالته أكثر عمقا كلما ازداد عمق اضطراره للاغتراب عن مجتمعه .

وثانيا هناك اتجاه عام لافتراض ان الناس كانوا في المجتمع السابق على عصر الصناعة اقل اغترابا بل وربما لم يكن هناك اغتراب على الاطلاق وانهم لم يكونوا فقط أكثر الفة للطبيعة ولكنهم كانوا كذلك اكثر انسانية . ويتعين على أولئك الذين يأخذون ذلك باعتباره أمرا مسلما به أن يضعوا ايديهم على الادلة العديدة على صحة ما يناقض ذلك ، تلك الادلة التي تتراوح بين قبائل المايا والازتيك وبين ابناء كريت الذين كتب عنهم نيقوس كازانتزاكيس في روايته « زوربا اليوناني » والقرية الهندية التي تطالعنا في رواية خوشوانت سينغ « قطار الى باكستان » . وقد قدم جيرزي كوزنيسكي لنا في روايته « الطائر الملون » لا صورة متنافرة لمجتمع الفلاحين وانما ايضا واحدا من افضل نماذج الاغتراب التي يمكن أن نلقاها في الادب الحديث . انه يحدثنا ــ وان لم يكن ذلك من بنات أفكاره ــ عن صائد الطيور الذي يختار من حين لآخر اقوى الطيور في اقفاصه ويلونه بكافة الوان الطيف ثم يجتذبه ليصبح فيجذب سربا من جنسه ثم يطلق سراحه . وواحدا بعد الآخر تهاجم الطيور السنجابية الطائر الملون الى أن يهوي الى الارض غارقا في دمائه ، ويدور الكتاب بأسره حول هذا الموضوع .

وأخيرا فلنتأمل كلمات ماركس الشهيرة في كتابه « الايديولوجية الالمانية » حيث يقول : « بمجرد الاخذ بتقسيم العمل يغدو لكل امرىء مجال محدد ومغلق لتقسيم العمل مفروض عليه ولا منجاة له منه ، فيصبح صائدا للحيوانات أو للاسماك أو زارعا أو ناقدا. ويتعين أن يظل كذلك اذا لم يشأ أن يفقد وسائل كسب معيشته بينما في المجتمع الشيوعي حيث لا يتعين على كل امرىء أن يكون له نشاط محدد ولكنه يستطيع ان يلحق نفسه بأي فرع يشاء ينظم المجتمع الانتاج العام . وهكذا يجعل من الممكن بالنسبة لي ان اقوم بهذا اليوم وبذاك غدا ، ان اصطاد الحيوانات في الصباح واتصيد الاسماك في الظهيرة ، وارعى القطعان في المساء وامارس النقد بعد العشاء كيفما اريد دون أن اضطر الى أن أصبح صياد حيوان أو أسماك أو راعيا أو ناقدا . ان هذا التجميد للنشاط الاجتماعي وذلك التحويل لانتاجنا الى قوة موضوعية تعلونا وتتجاوز سيطرتنا وتصطدم بتوقعاتنا وتبطل حساباتنا هو احدى السمات الاساسية في التطور التاريخي حتى الآن ... » .

ان حلم ماركس لم يتحقق في اي مجتمع شيوعي ، ولكنه تم ادراكه الى درجة يعتد بها في الولايات المتحدة ، فليس من الامور المستغربة على الاطلاق ان يتقلب شخص واحد قبل أن يصل الى الثلاثين من العمر في العديد من الوظائف ، وطلاب الجامعات بصفة خاصة يقيمون أودهم بوسائل عديدة خلال العام الجامعي ويعملون خلال الصيف في المصانع وارصفة الشحن واعمال البناء والمكاتب ، فيعملون بعمل ما خلال احد فصول الصيف وبعمل آخر في الصيف التالي . وبالاضافة الى ذلك فليس من الامور غير المألوفة بالنسبة لاولئك الذين يشغلون كافة انواع الوظائف ان يجدوا الوقت للقيام بصفة عرضية بصيد الحيوان او الاسماك . وممارسة النقد هي واحدة من أكثر الرياضات الاميركية شعبية ، وبدون شك فان الانغماس في النقد هو اكثر تكرارا واقل تعقيدا عما هو الحال في أي دولة شيوعية ، وبينما انه من المشكوك فيه ان الكثيرين قد ينجحون في أن « يرعوا القطعان في المساء » فان هذا الجزء من رؤية ماركس يوضح فقط كيف يتخيل احد

مدمني سكنى المدن البركة الرعوية . بل قد يؤخـذ كدليل على اغتراب ماركس عن الطبيعة .

وحتى اذا ما ربط المرء الوضع الذي يدينه ماركس بالاغتراب فان علاقة هذا الوضع بالرأسمالية هي أبعد ما تكون عن تقسيم العمل . ان تقسيم العمل كما يقول ماركس « هو احدى السمات الرئيسية لتطور التاريخ حتى الآن » ومعظم صور التقدم التي نأخذها كأمور مسلم بها تعتمد عليه . وحينما نصاب بالتهاب الزائدة الدودية فان قليلين منا سيهتمون بالسعي للحصول على المساعدة من شخص لم يتخصص في الطب وبخاصة في الجراحة . وليس في الطب وحده يعتمد التقدم على التخصص والخبرة التي تمضي قدما معه .

ان ما يجعل من الممكن للعمال والاطباء والطلاب ان يذهبوا لصيد الاسماك والحيوان هو مستوى المعيشة المرتفع المقترن باسبوع عمل قصير يتألف من العمل ثماني ساعات خمسة أيام في الاسبوع بالاضافة الى اجازة سنوية . وعلاوة على ذلك فان الضمان الاجتماعي وكافة خطط المعاشات تجعل من الممكن بالنسبة لعدد كبير من الناس التقاعد في سن مبكرة لقضاء باقي أعمارهم في القيام بما يحبون .

هناك بالطبع مناطق كبيرة يعمها الفقر فيالولايات المتحدة ، وسيوضح المستقبل ما اذا كانت الحكومة كما هو مقرر الآن ستحزم أمرها على معالجة هذه المشكلة الجوهرية . ولكن مسألة ما اذا كان المجتمع الاميركي أكثر طبقية على سبيل المثال من المجتمع السوفياتي أو البولندي فهذا موضوع آخر . وذلك دون أن نتحدث عن دول العالم الثالث التي تعيش فيها الجماهير غالبا في فقر . ولا يزال حلم ماركس يبدو طوباويا ، وفوق كل شيء فليس من الواضح ان الاغتراب أعظم فيالدول الراسمالية ، ويبدو ان الطريق الوحيد لتحقيق مستوى عال بما فيه الكفاية من المعيشة يسمح بتحقيق حلم ماركس يمر من خلال تقسيم العمل وخلق طبقة كبيرة من الخبراء ذوي الخبرة الفنية الرفيعة في كافة التخصصات .

الا ان تقسيم العمل ليس من الضروري أن يكون مصحوبا بفرض القواعد الصلبة التي تنزع انسانية البشر . وتتمثل احدى النتائج المترتبة على المرونة الاجتماعية في الولايات المتحدة على الصعيدين الراسي والافقي في انه من غير المحتمل أن يشعر أحد النـدل أو يجعل أولئك الذين يقدم لهم طلباتهم يشعرون بأن دوره يقيده ويجمده ويقرر علاقته بالآخرين ، فالجميع يعرفون انه طالب جامعي ، وحتى اذا ما بدا أكثر تقدما في العمر من أن يكون طالبا فقد يكون من قبيل التسرع أن نفترض انه سيظل ندلا لعام آخر . وعلاوة على ذلك فربما كنا نحن أنفسنا قد قمنا بالعمل نفسه ، وربما كان لنا أبناء يقومون به في الوقت الحالي . وهكذا فان الاغتراب الكامن في تقسيم العمل يتقلص بصورة ملحوظة . ومن المحتمل بصورة أقل أن ينسي الناس انسانيتهم أو انسانية الآخرين وبوضوح . فان ذلك هو مجرد اتجاه . ومن الممكن والمرغوب فيه بدرجة كبيرة أن نمضي قدما في هـذا الاتجاه الى أبعد مما ذهبت الولايات المتحدة اليه بالفعل .

وليس هناك من دليل على ان الاعمال في الاتحاد السوفياتي او الصين أو أي دولة اخرى تحاول تحقيق تصنيع كثير أكثر اثارة للاهتمام منها في الولايات المتحدة ، أما مسألة عدد الساعات التي يتعين علىالناس قضاؤها كل أسبوع في أعمال كئيبة لاعالة أسرة والحصول على ما يمكنهم من الذهاب للصيد اذا ما رغبوا . فهي مسألة مختلفة كلية ، والرأسمالية تسبق الشيوعية في هذا المجال .

اننا نواجه هنا قضايا عديدة . فاولا هل نستطيع التخلص من الاعمال التي تبعث على الضيق ؟ وحتى الآن ليس هناك مجتمع اشتراكي أو رأسمالي استطاع حل هذه المشكلة ، ولا يبدو ان الحل يعتمد على هوية من يمتلك أدوات الانتاج . انه يعتمد على التطورات الفنية وبصفة خاصة على مستقبل الاتمتة .

وثانيا هل بوسعنا أن نقلل بصورة كبيرة عدد الساعات التي يتعين أن يقضيها أي شخص أسبوعيا في أداء عمل يبعث على الضيق ؟ ان الولايات المتحدة وغيرها من الدول الرأسمالية قد أحرزت الكثير في هذا المجال والمزيد من التطور يبدو على مرمى البصر .

وثالثا : هل بوسعنا أن نبدل مواقع الناس حتى لا يتعين عليهم أن يقوموا بالعمل نفسه الذي يبعث على الضيق طوال الوقت ؟ فاذا ما تعين على المرء أن يقوم بصيد السمك ثماني ساعات في اليوم فقد يجد ذلك مرهقا للغاية ، وسرعان ما يصل معظم الناس الى حدود نفاد الصبر قبل أن يمضي وقت طويل . ان ما يجعل الصيد جذابا بالنسبة لعدد كبير من الاميركيين هو انه مختلف للغاية عن كل شيء يقومون به وانه ما من أحد يثقل على كاهلهم وهم يؤدونه ، فهل يمكن تنظيم الوظائف غير الجذابة على نحو يجعل التنوع يقلل الى حد كبير من الضيق في هذه الوظائف ؟ من الواضح انه يمكن القيام بالكثير وفق هذا التصور ، ولكن مقاومة مثل هذا التغيير ستأتي بصورة أساسية من أولئك الذين سيستفيدون منه ، فقلائل هم أولئك الذين يمقتون الروتين ولديهم عدة هوايات ، ومعظم الناس يرغبون بصورة مذهلة في تغير بالغ الضآلة ، والدليل على ذلك هو ما يفعلونه في وقت فراغهم .

ان أي اعتقاد بأن معظم الناس سيستغلون وقت فراغهم اذا ما أتيح لهم في اعادة قراءة تراجيديات اسخيلوس ــ على نحو ما كان يفعل كارل ماركس سنويا ــ هو اعتقاد مغرق في الخيال . وليس هناك من دليل على صحة الاتهام القائل بأن الرأسمالية وحدها هي التي تمنعهم من ذلك ، وليس افتراض ماركس ان الانسان له جوهره موضع تساؤل فحسب ، ولكن مفهومه عن الطبيعة الحقة للانسان لا يقوم على أي أساس تجريبي راسخ ، ويبدو ان ماركس قد أدرك ذلك على الاقل بصورة نسبية في ١٨٤٨ ولكن الكثيرين من الكتاب الاشتراكيين ذوي النزعة الانسانية لا يزالون يصرون على التمسك بصورة غير نقدية بمخطوطاته الاولى غير الناضجة .

٦ ــ « الاشياء لم تكن أسوأ مما هي عليه الآن »

ثمة فكرة ليست ماركسية الجذور على نحو خاص تضرب أطنابها في الآداب التي تدور حول الاغتراب . وتقول هذه الفكرة بأن الاشياء لم تكن أسوأ مما هي عليه الآن ، وما لم يضع المرء يده على هذه الفكرة فانه سيفقد الكثير من مغزى الانتشار الحالي للاغتراب .

ان الشعبية الكبيرة التي اكتسبها كتاب مارتن بوبر « الأنا والأنت » ، الصادر في ١٩٢٣ ، خلال الستينات ترجع الى حد كبير الى حقيقة ان الجزء الثاني من اجزائه الثلاثة يعالج الاغتراب باستفاضة ويشير الى اننا نعيش في عصر تعس . فقد أصبح الناس ينظرون الى بعضهم بصورة أقل باعتبار ان كلا منهم هو آخر بالنسبة للباقين ، وكذلك الامر بالنسبة لعمل فني أو شجرة ، ويربطون بصورة اكبر رفاقهم والاعمال الفنية والطبيعية بموضوعات التجربة والاستخدام . وقد اعتبر الشبان والشابات الذين طالعوا الكتاب بعد كتابته بأربعين عاما ، اعتبروه كتابا ملهما لانه يبدو انه يصف باكتمال بالغ العالم الذي يعيشون فيه ، ولم يخطر ببال معظمهم ان العالم الذي كتب فيه الكتاب كان مماثلا للعالم القائم اكثر مما خطر لبوبر نفسه انه يميل الى تمجيد ماض لم يكن مختلفا على النحو الذي افترض بصورة عرضية ان الامر عليه . لقد أدرك بوبر بصورة مؤكدة ان البشر لا يمكن ان يعيشوا كلية في اطار علاقة الأنا ــ والأنت ، ولكنه دبج كتابه في أوقات بدا فيها كما لو ان الماضي قد عرف مجتمعات لا يشوبها « المرض » ، وشأنه شأن الآخرين الذين تحدثوا بهذه الروح قد فشل في تأصيل أو حتى تمحيص هذا الافتراض .

وبالطبع فان الاشياء لم تكن دائما على نحو ما هي عليه الآن ، ولكن أتراها كانت أفضل ؟ ان ذلك أمر ينتظر الايضاح ، وهذا الايضاح يتطلب كلا من البحث التجريبي والمعايير القيمية ، ولكن حتى في بعض الجوانب الواضحة كان هناك تقلص واضح وكان يمكن أن يصحب ذلك احراز تقدم في جوانب أخرى هامة .

ان ما نشهده الآن هو رد فعل مفهوم ضد الاعتقاد المغالي في التقدم الذي كان سائدا في القرن ١٩ ، لكن الاعتقاد الجديد المضاد في الاغتراب الفريد للانسان المعاصر مماثل في عدم صحته وعدم أصالته للاعتقاد القديم في التقدم ، فالفكرتان القائلتان بأن الاشياء لم تكن أفضل مما هي عليه وانها تزداد تحسنا باطراد وبأن الاشياء لم تكن أسوأ مما هي عليه الآن وانها تزداد انحدارا باستمرار ، هاتان الفكرتان متساويتان تماما في وقوعهما في الخطأ .

ومما يثير السخرية ان كلتا الفكرتين ينبغي أن ترد في الغالب الى هيغل أو الى ماركس ، فالخطأ في مثل هذه الافكار الخيالية الساذجة يكمن في انها غير جدلية على الاطلاق ، فالناس يضعون ايمانهم أو رفضهم في طرح بسيط دون أن يتساءلوا حتى لماذا ينبغي أن يقابل هذا التأكيد بصورة منطقية بزعم معارض على طرف نقيض منه . ان كلمة «جدل» هي كلمة يروج استخدامها مثل كلمة « اغتراب » ، ولكن قلائل من اولئك الذين يستخدمونها لديهم فكرة واضحة عن معنى الجدل الهيغلي . ان المرء يعلم بالطبع ان لها علاقة بالنقائض ولكنها عادة ما يفترض انها تتضمن نفيا لقوانين الفكر أو المنطق .

لقد عارض هيغل في الحقيقة نزعة الجمود التي كانت لدى أولئك الذين يؤمنون بافتراضات بسيطة كالقول بأن الاشياء لم تكن ابدا أفضل (أو أسوأ) مما هي عليه الآن . وليست مهمة الفيلسوف تفحص معنى ما هو أفضل وما هو أسوأ والمعايير المتضمنة فيهما ، بل من المهم كذلك ان نبحث كيف يرتبط هذا الذي اصبح أفضل بذلك الذي غدا أسوأ . واذا ما اعتبرنا ان شيئا ما بالغ السوء فانه من المبالغة في السذاجة القول بأننا ينبغي أن نتخلص منه بصورة سافرة أيا كان الثمن . وانه لما يظهر افتقارا مروعا للخيال والعلم والمسؤولية الزعم بأن أي شيء على الاطلاق يتحتم أن يكون أفضل مما هو عليه ذلك الذي لا نحبه ، ويتعين علينا أن نتساءل أي تغيير يمكن ان يكون أفضل وأي ثمن سيتعين علينا ان ندفعه لقاء كل تغيير .

ان معظم النقاش حول الاغتراب يفتقد التبصر تاريخيا بمعان ثلاثة : فالمرء يخفق في التساؤل عما كانت الاشياء عليه بالفعل في الماضي ، وقد لا يدرك حقيقة ان التغيرات لها في الغالب آثار جانبية تبرهن في المدى الطويل على انها أكثر اهمية من الآثار التي قصد احداثها ، وأخيرا فان المرء يعجز عن النظر الى موجة الاغتراب الراهن من منظور تاريخي .

ان الغربة عن الطبيعة والمجتمع ورفاق المرء وذاته هي جزء من تصعيده في معراج النمو ، ذلك ان على المرء أن ينزع ذاته من رحم البيئة لكي يصبح شخصا فردا وكيانا مستقلا . والوعي بالذات يتضمن مثل هذا الانتزاع ، ويتعين على المرء أن ينظر الى نفسه والى الآخرين والى العالم ككيانات غريبة ومحيرة .

ولا يبدو انه يترتب على ذلك ان يغدو من الصعوبة بمكان بالنسبة لنا أن نتصل بالآخرين ، أم ترى ان ذلك هو ما يحدث في النهاية ؟ اليس ذلك جزءا من الثمن الذي يدفعه المرء من أجل السمو ومن أجل أن يغدو بصورة استثنائية حساسا ومفكرا وشريفا ؟ اننا بازاء المعضلة التالية : ان ما كان في الماضي وضع أولئك الذين حظوا بالتميز قد أصبح الآن وضع الملايين الذين لا يتمتعون بموهبة خاصة . وفي ذلك يقول تاسو في مسرحية غوته :

وحينما يلف الصمت الانسان في معاناته .
فان الها ما يهيب بي أن أصرخ بما أعانيه .

والآن هناك الكثيرون ممن يعانون الاغتراب الذي عاناه تاسو الذي أبدعته عبقرية غوته ، ولكنهم عاجزون عن التعبير عما يعانون : انهم فقط يعانون .

ان المزيد من الناس يحصلون بصورة متزايدة على الثقافة ويواجهون الادب والفن والموسيقى وينمون نوعا من الحساسية الى جانب الرغبة في أن يصبحوا فنانين او كتابا أو بشرا خلاقين من نوع ما ، ويجدون ان المهن التي تنتظرهم هي فعليا وبصورة مخيبة للآمال باعثا على الاكتئاب .

ان الاغتراب كامن في كل العصور ، ولكنه لا يتخذ دائما الشكل نفسه ، والكثير من الظواهر التي تدرج معا في الوقت الحالي تحت هذا الاسم ترجع أساسا الى سببين : الثقافة الجماهيرية والانفجار السكاني .

قبل عصر التلفزيون بزمن طويل شن نيتشه حملة شعواء ضد الترهل أو البلادة التي اتسم بها شعبه . واليوم ترتبط البلادة الى حد كبير بأجهزة الاعلام . ولكن بغض النظر عن نوعية المجتمع الذي يعيش فيه الناس فان البلادة تبدأ بالنسبة لمعظمهم في أوائل العشرينات ان لم يكن قبل ذلك . وقد يبدو أكثر عدلا القول بأن البلادة تبدأ بمجرد ارسال الاطفال الى المدرسة ، ولكن بينما تخمد معظم المدارس شرارات الفضول التي بقيت متوهجة حتى ذلك الوقت ، فان الطلاب عادة ما يتعلمون ما لا يقترب مما ينبغي أن يتعلموه . ومع ذلك فانهم يتعلمون بعض الشيء ، فاذا ما خرجوا من المدرسة فان معظمهم يتوقفون عن تعلم الكثير ويصبحون باطراد أقل فضولا ، وبتعبير أدق فان فضولهم ينحرف عن مجراه ، فالرغبة في البحث تغدو جمودا والقدرة السحرية على القراءة تستخدم في استطلاع أسرار الحياة الخاصة لنجوم السينما .

وبالرغم من كل ذلك فقد قرأ المزيد من الناس افلاطون وشكسبير . واي فكرة تدور حول ان الجماهير كانت في الماضي اكثر استنارة واتساعا في أفقها أو اكثر انسانية وتقديرا للشعراء والرسامين والفلاسفة عما هي عليه الآن . هي أبعد ما تكون عن الحقيقة . ففي الولايات المتحدة يلتحق الطلاب بالجامعات بأعداد أكبر من ذي قبل وتحصل نسبة مئوية اعلى من الناس على تعليم عال بالمقارنة بأية دولة كبيرة . حقا ان التعليم الذي يتلقاه معظمهم سيىء على نحو يعتبر بمثابة فضيحة ، ولكن أفضل تعليم متاح في أفضل كلياتنا ومدارسنا العليا يمكن مقارنته بسهولة ان لم نقل انه أفضل من خير تعليم كان يقدم في فترات سابقة . واذا ما كان هذا التعليم أقل جودة في بعض المجالات فانه اكثر امتيازا في مجالات اخرى . والعديد من الاشياء التي كان آباؤنا وأجدادنا يتعلمونها بدقة أصبحت موضع تجاهل الآن ، ولكن هناك أشياء عديدة الآن يتعلمها الطلاب لم يكن أحد يستطيع أن يحلم بها منذ ٥٠ عاما . ولا يقوم العديد من المدرسين الذين يجدون أمامهم الكثير من مادة التاريخ الحديث والادب والعلوم ليقوموا بتدريسها ــ لا يقومون بتدريس الكثير من المواد الاساسية في الكلاسيكيات والانجيل واللغات الاجنبية . وذلك دون الحديث عن اللغة القومية . والخطأ في هذا يقع بصورة واضحة على الجيل السابق . حقا انه مما لا غنى عنه أن تجري محاولة تطوير التعليم ولكن ليس هناك من سبب يدعو للاعتقاد بأن الاشياء كانت افضل في الماضي .

وحتى افضل تعليم لا بد له أن يزيد الاغتراب . فهو يوضح لنا في كل مرحلة كيف ان ما هو مألوف ليس مفهوما وكيف ان ما يبدو واضحا هو في الحقيقة أمر غريب تماما . وتتهاوى الادعاءات المريحة مع اكتشافنا ضآلة ما نعرفه ، واذا ما كان الاغتراب اكثر انتشارا الآن مما كان عليه في الماضي ، فان ذلك يرجع الى ان المزيد من الناس يتلقون المزيد من التعليم اليوم بالمقارنة بما كان عليه الحال سابقا

وعلاوة على ذلك فان نظامنا التعليمي لا يقدم للطلاب الفن والشعر والروايات العظيمة فحسب ، بل انه يشجعهم على الاعتقاد بأنهم قادرون على ان يرسموا ويكتبوا بصورة جيدة مثلما يفعل اي شخص آخر . انه لا يعقد أواصر الصداقة بينهم وبين فريق من أكثر العلماء أصالة ولكنه كذلك يقودهم الى الاعتقاد بأنه ما من سبب يحول بينهم وبين القيام باكتشافات مماثلة لاكتشافات هؤلاء العلماء ، والطالب لا يدرس فحسب الرؤساء الراحلين ولكنه يلقن كذلك ان كل طفل اميركي وربما كل

طفلة يمكنه أو يمكنها ان يتولى منصب الرئيس ، ولكن مثل هذه التوقعات المتطرفة مقدر لها أن تواجه بالاحباط في معظم الحالات . وهناك سببان لذلك :

فأولا الحياة الخلاقة حافلة بالاكتئاب ، وقلائل للغاية هم أولئك الذين يتمتعون بالموهبة الكافية لايجاد احساس غامر بالرضا في هذه الحياة ، وبدلا من تأكيد المهارات الاساسية والمعرفة القاعدية وتدريب الافراد على الوظائف التي تنتظرهم بصورة فعلية فان مربينا غالبا ما يتحدثون بصورة مرحة عن المشروعات والابحاث والوعد والاصالة والاكتشاف والروح الخلاقة، ولكن الاصالة المنظمة بالغة الندرة والقليل من الطلاب يواصلون مسيرتهم للقيام بالاكتشاف أو الكتابة أو الرسم أو النحت أو تأليف أي شيء له اهمية دائمة .

وثانيا فان العدد الاجمالي للسكان في معظم المجتمعات يتزايد بمعدل ينذر بالخطر ، وهكذا فان كل طفل اميركي اليوم يحصل على هامش محدود من الفرصة في أن يصبح رئيسا للبلاد التي كانت متاحة لكل طفل أميركي منذ قرن مضى من الزمان . ان ذلك لا يبدو بالامر الخطير ولكن الطالب الذي يختار ان يصبح عالما أو كاتبا أو رساما أو فيلسوفا يتعرض للشعور بأن المنافسة قد اصبحت محتدمة للغاية ، لدرجة انها تتحدى المقارنة بالعصور السابقة . وخلال الفترة الطويلة التي يستغرقها تدريبه لا يكون متأكدا من انه سيكون قادرا على أن يقيم أوده في المجال الذي اختاره . وهناك أسباب أقل تدعوه لتوقع انه سيحقق هدفه بانجاز عمل متميز بالجدارة ، وتلك واحدة من اكثر التجارب المرتبطة بالاغتراب محورية ، ولكن بينما ان اعداد اولئك الذين يشعرون بعدم الامن وبالاحباط أكبر منها في الماضي بصورة واضحة ، فان الموقف لم يصبح اكثر سوءا اذا نظرنا اليه من ناحية النسب المئوية . بل على العكس فالمرونة الرأسية لم تكن أكبر مما هي عليه الآن ، ولكن اذا ما كانت احدى المرات النادرة التي فاقت فيها المرونة الرأسية ما هو قائم الآن تعود الى سنوات قليلة مضت فان انخفاضا مفاجئا قد يخلق الانطباع الخاطىء بأن الاشياء اسوأ مما كانت عليه .

ان بعض التجارب التي غالبا ما تستخدم كلمة الاغتراب بصددها هي نتيجة حتمية للتعليم ، والبعض الآخر يرجع الى أساليب خاصة في التعليم وبصفة خاصة الى الطريقة التي يرفع بها تعليمنا التطلعات المقدر لها أن تظل دونما تحقيق في معظم الحالات ، ومن الممكن تجنب أشكال عديدة للغاية من الاغتراب بتقديم تعليم أقل وهو علاج أسوأ بما لا يقارن من المرض ، ولكن بعض أشكال الاغتراب يمكن الحيلولة دون ظهورها بتغير نظامنا التعليمي وبعدم استثارة الآمال غير الواقعية وباعداد الطلاب لاعمال تنتظرهم بالفعل ولوقت الفراغ الذي يستغله معظم الناس بطريقة بالغة السوء .

٧ ـ ضد تراث ماركس :

يشعر معظم الناس بعد أن أصبح من الصعب بصورة مطردة أن يجاروا التطورات في مختلف الميادين بحاجة متزايدة الى كلمات هي بمثابة الحلول الوسط لا تكبدهم عناء الكثير من الدراسة ، ويمكن أن تستخدم في مجالات متعددة مع اعطاء انطباع بأن قائلها لا يشق له غبار في خبرته . ان النقطة الجوهرية هنا ليست بالضرورة خداع الآخرين ، ذلك ان أعظم فائدة يجنيها مستخدم مثل هذه الاصطلاحات هي انها تعيد له تأكيد ذاته ، فبدلا من شعوره بالعجز والجهل يشعر بأنه في قلب الاحداث .

واحدى الفوائد الثانوية لمثل هذه الاصطلاحات انها تولد أسئلة يمكن مناقشتها بلا انتهاء لا في الحفلات والفصول فقط ــ ترى ما الذي يستطيع بعض المدرسين ومقيمات الحفلات أن يفعلوا دونها ؟ ــ ولكن كذلك في الاعمال المنشورة . وجانب كبير من مثل هذه الاصطلاحات ينتهي بالمصدر الصناعي ، ذلك انه يمكن صنع الاعاجيب من اصطلاحات مثل « الواقعية » و « المثالية » وبالطبع « الوجودية » حيث تنهمر الاسئلة عن انتماء سيىء من الناس الى هذا المذهب أو ذاك وتأثيره في الدراما الاميركية ، ولكن الكلمات التي تعكس حلا وسطا لا تنتهي جميعها بالمصدر الصناعي ، والدليل على ذلك ماثل في كلمات مثل « الجدل » و « المطلق » و « الاغتراب » .

ولقد أشرت كخطوة أولى على طريق العلاج الى ضرورة أن نتساءل عمن يفترض انه مغترب وعن من أو ماذا يغترب . ويبدو انه من المنطقي ان نشير الى انه اذا لم يتم تحديد احد أو كلا طرفي العلاقة فان استخدام كلمة اغتراب هو استخدام خاطىء في هذا الصدد .

أما الاشارة الاخرى فمن المؤكد انها ستثير خلافا أكبر ، فبعض الطرق التي استخدم بها ماركس اصطلاح الاغتراب تتجاوز المقصود منها بصورة بالغة ، وينبغي التوقف عن استعمالها ، فيما عدا بالطبع في مناقشة فكر ماركس وأتباعه . لقد تأثر ماركس الى حد كبير بهيغل ولودفيج فيورباخ حينما كتب مخطوطاته الاولى في ١٨٤٤ ، وتاريخيا فليس من الصعب أن نتفهم سبب استخدام ماركس لهذا الاصطلاح على النحو الذي قام به . أما الآن وبعد أن لحقت بالاصطلاح معان عديدة اخرى وثيقة الصلة بالمعنى الحرفي للكلمة فسوف تتضح الامور بدرجة يعتد بها اذا ما استطعنا أن نضع حدا للخلط .

فلنتناول فقرة من مخطوطة ماركس المسماة « العمل المغترب » والتي يلخص فيها ما يعنيه بالاغتراب، يقول ماركس : « وفق مبادىء الاقتصاد السياسي فان اغتراب العامل عن موضوع عمله يجد التعبير عنه على النحو التالي : كلما زاد انتاج العامل قلّ ما يستهلكه ، وكلما ازدادت القيم التي يخلقها تدنت قيمته ، وكلما ازداد كمال شكل ما ينتج زاد تشوهه ، وكلما ازداد الطابع الحضاري لما ينتج ازدادت همجيته ، وكلما زادت القوة الكامنة في العمل أصبح العامل عاجزا ، وكلما توهجت الروح التي يودعها في العمل تقلصت روحه وغدا عبدا للطبيعة » .

من الجدير بالملاحظة ان العبارة الاخيرة من الفقرة لا تتوافق مع قواعد اللغة في النص الاصلي ، وان الفقرة بأسرها موضوعة بين اقواس لانه غالبا ما ينسى ان هذه المخطوطات الاولى تمثل صياغات أولية لم تتم مراجعتها. غير ان هذه الافكار تستحق اهتماما نقديا ، فهي في المقام الاول قد عبّر عنها مرارا وتكرارا في الموضع نفسه وفي غيره من المخطوطات الاولى ، وثانيا فهذا هو موضع الفكرة الماركسية القائلة بانه من المحتم ان يصبح وضع العمال أقل انسانية وقابلية للاحتمال الى ان تندلع ثورة عنيفة يتم فيها كما جاء في « راس المال » تجريد من اعتاد تجريد الآخرين من ممتلكاته . وأخيرا فان هذه الافكار اثرت بصورة كبيرة لا على الماركسية فحسب بل على الآداب التي دارت حول الاغتراب .

هذه الفقرة التي نقلناها هنا هي نموذج جيد لاسلوب ماركس الغارق في النقائض ، ولكنه ليس مما يخلو من المعنى تماما القول بأن ماركس كان مخطئا . ان ما وصفه ماركس باعتباره تطورا حتميا ليس هو ما حدث تماما في انكلترا والولايات المتحدة وغيرهما من دول الغرب الصناعية ، ومن اليسير ان نوافق ماركس على ان التطورات التي صورها هي دون استثناء تطورات مرعبة : كالافقار والاذلال ونزع الانسانية والتحويل الى الهمجية والاضعاف والتعجيز ، وهي تطورات لا ينبغي أن تحلّ بساحة كلب ، ولكن لماذا نسمي كل ذلك بالاغتراب ، وما الذي قاده الى الاعتقاد بأنها تطورات حتمية ؟

ان الاجابات على كلا السؤالين يمكن أن نجدها لدى هيغل وفيورباخ اللذين تصادف اسميهما باستمرار في مخطوطات ١٨٤٤ ، وقد استخدم هيغل كلمة « ضروري » مرارا وتكرارا كمرادف لكلمة « طبيعي » وكنقيض لكلمة « تعسفي » أو « متقلب » تماما ، وهذا الخلط أمر سائد بين الكتاب الالمان التالين له ، وهو ما عانى فكر ماركس الامرّين منه .

وقد أوضح فيورباخ كيف ان الانسان وضع أفضل صفاته في الالوهية الى أن أصبح الاله صورة الكمال ، وغدا الانسان خاطئا يفتقد الكمال بصورة لا يرجى لها البرء . ان الانسان يجرد ذاته من كل ما هو طيب وقوي ليخلعه على الاله ، وكلما جعل الهه أعظم جعل نفسه أكثر ضآلة . وقد سعى ماركس لينقل هذه الفكرة الى قوانين الاقتصاد السياسي ، ويبدو ان نقائضه الجديدة تخلب لب أولئك الذين يبحثون عن النزعة الانسانية الماركسية ، فاذا صح ما قال به من ان العامل يحرم من كل صفاته التي تظهر في انتاجه ، أي الجمال والدقة والقوة ، ويغدو قبيحا خشنا ضعيفا ، لأمكن القول بأن ذلك هو الاغتراب . واذا ما استخدمنا الاصطلاحات الالمانية فبوسع المرء أن يذهب الى القول بأننا في تلك الحالة لن نكون بازاء التخارج وحده وانما كذلك أمام الغربة ، ولكن حيث انه ليس من الحتمي على الاطلاق أن يصبح العمال أكثر فقرا كلما زاد انتاجهم فانه يغدو لا معنى هنالك لوصف الافقار بالاغتراب ، واذا ما تحدثنا عن التبلد باعتباره اغترابا بدلا من الابقاء عليه بوضوح في البؤرة بوصفه ظاهرة قائمة بذاتها فاننا سنكون أمام فرص أقل لان نضع يدنا عليها ونحول دون وقوعها .

ان ما نطرحه هنا ليس موجها الى ماركس والمعجبين به فقط ، فالكتاب الآخرون يستخدمون مصطلح « الاغتراب » كنقيض لتحقيق الذات ، وهم يقومون معتمدين على مفهومهم عن ذات الانسان الحقة باستخدام الاغتراب لتوصيف الوحشية والتبلد وافتقاد العفوية والتضارب وافتقاد الاصالة او اي شيء على الاطلاق قد يصفه المرء بانه يعد انتزاعا للانسانية . ولكننا لدينا أسماء نطلقها على هذه الظواهر وهي أكثر تمييزا ، وتساعدنا على ايضاح المسائل العسيرة اذا ما صادفتنا مشكلة في ايجاد الاصطلاح الصحيح . والنقاد الجادون لا يرضون بوصف ما يحبون بأنه « رائع » أو « مناسب » أو الهي ، كما ان الكتاب الجادين لا ينبغي أن يرضوا عن تسمية ما يستنكرونه بأنه « اغتراب » .

من هنا دعنا نقصر استخدام هذا الاصطلاح على الحالات التي يشعر فيها شخص ما بأنه مغترب عن شيء أو عن الآخرين ، وما من حاجة تدعونا لان نقرر ان « أ » الذي أشرنا اليه قبلا وثيق الصلة ب « ب » ، والاغتراب يمكن أن يأخذ صورة شعور « أ » المفاجىء أو ادراكه ان هناك هوة تفصله عن « ب » .

ومن الامور الملحة أن ندرك ان الاغتراب ليس مدمرا بالضرورة ، فالمرء لا يمكنه أن يشارك في كافة الجماعات التي قد ينتمي اليها حيث يتعين عليه أن يقوم بخيارات في هذا الصدد . فليس وقته وطاقته هما وحدهما المحدودان ولكن بعض الجماعات كذلك تحدد هويتها على نحو يتعارض مع جماعات أخرى ، فاغتراب « أ » عن « ب » قد يكون الثمن الذي يدفعه لانتمائه الى

« ح » ، وليس من الضروري أن يشعر بذلك باعتباره ثمنا يدفعه .

وعلاوة على ذلك فان بعض انواع الاغتراب لهـا ثمارها ، والدليل على ذلك على سبيل المثال هو مطارحة لنيتشه في كتـابه « هكذا تكلم زارادشت » بعنوان « في الطريق الى الخلق » ، وقد سبق لنا أن رأينا أحد الكتّاب يقابل الاغتراب « بما يمكن أن يسمى في اللغة الدينية بالخطيئة » ، كما تتعدد الاشارات الى اننا ينبغي أن نحول دون وقـوع الاغتراب ، ولكن ذلك سينزع انسانية الانسان بصورة حقيقية .

ولا يترتب على ذلك اننا ينبغي ألا نبالي بالاغتراب المدمر ، فالشرور التي هاجمها ماركس الشاب في الفقرة التي نقلناها عنه ينبغي أن تحارب . ولكن مكافحة هذه الشرور بصورة فعالة ، وكما اكتشف ماركس بنفسه خلال اقل من اربع سنوات ، لا يمكن أن يكون أفضل الطرق لتحقيقها هو تجميعها معا تحت العنوان الجامع « الاغتراب » .

٨ ــ نظرة اجمالية :

لقد أوردنا أسباب عـدم قصر اصطلاح الاغتراب على الظروف المدمرة للذات ، فهل ينبغي علينا أن نقصر استخدام هذا الاصطلاح على الاغتراب المثمر أي على الاوضاع التي صورناهـا من خلال حياة الفلاسفة والشعراء المختلفين بصورة شاملة ؟ ان المعضلة تتمثل في ان المرء لا يعـرف بصورة مسبقة متى سيبرهن الاغتراب على انه مثمر ، وعلاوة عـلى ذلك فان تدمير الذات والنزعة الخلاقة ليسا منعزلين أحدهما عـن الآخر ، وهذه النقطة الاخيرة محورية في مقدمة كتاب « هكذا تكلم زارادشت » لنيتشه ، ولكـن اولئك الذين قد تنفرهم لغة الكتاب المعقدة قد يتأملون حالة نيتشه نفسه أو حالة فرانز كافكا . لقد كان كافكا واحدا مـن أكثر الكتّاب في هذا القرن أصالة وقدرة عـلى الخلق ولكنه خلف تعليمات باحراق مخطوطات كتابه « المحاكمة والقلعة » لانه كان يشعر بالتأكيد انه قد مني بالفشل ، وسيغدو امرا غامضا لا يقدم يد العون أن نذهب الـى القول بأنه كان يعتقد انه مغترب . ولكن لكونه كاتبـا عظيما لم يكن مغتربا بالفعل ، أم انه كان كذلك دون أن يدري ؟ وأقل من ذلك تضليلا القول بأنه كـان مغتربا ويشعر بذلك بصورة عميقة دون أن يدرك الى أي حـد كانت حالته مثمرة وكيف جعلت صوته قادرا عـلى أن يرتفع بالنبوءة وكيف انه في اقل من ٣٠ عاما سيشعر ملايين القراء في العديد من البلاد المختلفة بأنهم يشاركونه معاناته .

وبقدر ما يحتوي الاغتراب شعورا مؤلما بالعزلـة والتشكك في النفس والاحباط بقدر ما يبدو أن هنـاك نوعين من البشر : القلة التي يمكنها لتميزها بالقدرة على الخلق معالجة الاغتراب ، والكثرة التي لا تستطيع ذلك لافتقادها لهذه القدرة . وقد كتب نيتشه كما لو كانت تلك حقيقة ساخرة وافترض كـذلك ان أولئك الذين يتمتعون بموهبة التعبير عما يعـانون تزداد معاناتهم عن الجموع الصامتة ، ودار اهتمامه بصـورة مسبقة حول أولئك الذين بدت معـاناتهم أعظم بالنسبة له ، وبالنسبة للجموع ، فقد أشار بصورة عرضية الى انه قد يكون من الافضل الابقاء عليها راضية بوضعهـا الوسيط والا تتسامى بآمالها باعطائها تعليما أكثر مما ينبغي .

أما أولئك الذين يبدون اهتمامـا اكبر بالجماهير غير الخلاقة فقد يتبنون نظرة أكثر قتامة للحياة مـن نظرة نيتشه . فعلى حين يقبلون صورته المأساوية عـن الحياة الخلاقة الا انهم يشعرون بأن تعاسة أولئك الذين يفتقدون حتى العزاء الذي يقـدمه الانجاز العرضي يجعلون العالم جحيما مترامي الاطراف .

الا ان أي تقسيم من هذا القبيل للانسانية ينبغي رفضه . فليس معاصرو المرء هم قضاة غير قادرين على تحديد مكانته فحسب ، على نحو ما ادرك نيتشه جيدا من تجربته الاولى ، ولكن هنـاك الكثيرين مثل كافكا لا يثقون تماما بمكانتهم ، كما ان هـذين الاعتراضين لا يمضيان بما فيه الكفاية ، ذلك انهما ما زالا يتركـان النموذج المزدوج دونما تناول ، ويظهران فقط الى احد يصعب أن تقرر ــ على الاقل في بعض الحالات ــ الى أي معسكر ينتمي شخص ما ، ولكن مثل هذه الازدواجيـة تقدم على أسس واهية وخبيثة .

ما من شخص يظل خلاقا طوال الوقت ، وما من شخص يفتقر للنزعة الى الخلق دائما . ومن سوء الحظ ان الكثيرين يقتربون من النموذج المتطرف الاخير وخاصة مع تقدمهم في السن . ولكن ذلك يرجع بصورة جزئيـة الى خطأين بالغين : ان التعليم الذي تلقوه يعطيهم صورة مفرقة في الخيال عن الخلق ويقنعهم بأنهم خلاقون بهذا المعنى الاستثنائي كلية ، ومعظم الناس يكتشفون بسرعة كافية انهم ليسوا كذلك ثم يستسلمون ، وكنتيجـة لذلك فانهم يبتلعـون الفكرة الزائفة القائلة بـان هنـاك نوعيـن من الناس وغالبا ما يسم تقاعسهم نـوع مـن الرفض لاولئك الذيـن لـم يستسلموا .

ويمكن ان نصل بالشعور بالاغتراب الى الحد الادنى من خلال الخفض الحاد للتعليم العـام وغسيل المخ والمخدرات وحتى عن طريق اجراء عمليات في فصوص المخ الجبهية ، ولكـن اذا ما كـان معظـم الناس مجرد صور هزليـة لما ينبغي ان يكونوا عليه فـان من الممكن تمامـا لكي يغدوا اكثر انسانية ان يصبحوا اكثر اغترابا، وهذه الفكرة تجد تأييدا لا في أفكار هيغل وحده ، ولكن في بعض ديانات العالم الكبرى .

تتفق اليهودية والمسيحية في تحديهما الاصلي للبشر لتغريب انفسهم عن الطبيعة والمجتمع وعن ذواتهم ، ذلك انه ليس من المفترض ان يشعر الفرد بالالفة بصورة كلية في رحاب الطبيعة ، فاليهودية تنتزع الانسان من الطبيعة وتؤكد الانفصام بينهما ـ الفوارق الاصلية بين الانسان والحيوان ، وعلاوة على ذلك فان احد النغمات الدالة في العهد القديم القول بان الشعب لا يفترض ان يكون « كسائر الامم » وانما شعبا متميزا . وعلى صعيد نظري قد يعني ذلك ان احساسهم الاجتماعي قد يعوضهم كلية عن اغترابهم عن الامم الاخرى ، واذا ما طالع المرء كتاب بوبر « الانا والانت » فقد يشعر بأن هذا هو ما حدث بالفعل ، ولكننا لا نجد في العهد القديم اثرا لمثل هذا المجتمع المتكامل ، بل اكثر من ذلك فاننا نجد سلسلة متواصلة من الشخصيات العملاقة التي لا تؤكد فحسب للشعب ان عليه ان يكون مختلفا ولكنها هي ايضا تغترب تماما عن شعبها ومن بين الامثلة البارزة في هذا الصدد موسى وايلياء وعاموس وارميا ، انهم لا يذكرون شعبهم فحسب بانه غريب في ارض مصر ولكنهم هم انفسهم غرباء عن شعبهم .

ولقد تحدث سيغموند فرويد عن هذا التقليد وقدم صورة واضحة للاغتراب المثمر حينما قال في بداية كتابه « انطباعات شخصية » الصادر عام ١٩٢٥ ، ان الجامعة التي دخلتها في ١٨٧٣ قد جلبت لي مشاعر مؤكدة قوامها خيبة الامل ، فقد اذهلني قبل كل شيء الافتراض بانني ينبغي ان اشعر بالتدني وبأني لست واحدا من افراد الشعب لانني يهودي ،وقد رفضت هذه الفكرة بحزم قاطع ولم افهم ابدا لماذا ينبغي ان اخجل من اصلي او من العرق الذي انتمي اليه على نحو ما كنا قد شرعنا في القول،ورفضت دونما ندم الانتماء الى الشعب ذلك الانتماء الذي حرمت منه قبلا واعتقدت انه بالنسبة لرفيق كادح فان مكانا صغيرا ينبغي ان يوجد في اطار الانسانية حتى دون هذا القبول، ولكن هذه الانطباعات الاولى عن الجامعة بقيت لها نتيجة واحدة ظلت لها اهميتها فيما بعد : لقد اصبحت في وقت مبكر من حياتي معتادا على الوقوف طويلا في صفوف المعارضة وان يحظر نشاطي من قبل اغلبية متماسكة وقد ارسى ذلك في داخلي اساس استقلال معين في اصدار الحكم ».

وقد مضى الشعور بالاغتراب الى اعماق ابعد غورا في ديانات اخرى واصبح اكثر تعقيدا . ففي المسيحية الاولى كان الاحساس متفاقما بأن هذا العالم ينتمي الى الشيطان وانه ميئوس منه كلية ، كانت الطبيعة هي العدو والجنس هو الشر والجسد سجنا ـ على نحو ما كان الامر عليه لدى اتباع اورفيوس ـ وكان المجتمع ملكا لقيصر وتأجلت الآمال الرسولية حتى مجيء العالم الآخر . وتتكرر الاشارة في مواضيع عديدة الى اليأس من اقرار العدالة الاجتماعية ، ويقدم القديس بولس صياغة كلاسيكية للاغتراب عن الذات اذ يقول : « وحقا لا ادري ما أفعل فالذي اريده لا أفعله وأما الذي ارغب عنه فاياه افعل » (رسالته الى اهل روما ٧ ـ ١٥) ولم تكن الهندوكية ولا البوذية اقل اغترابا قد سعى حكماء الاوبانيشاد الى تغريب اتباعهم عن الطبيعة والمجتمع بل وعن اجسادهم وعن اي شيء قد يعتبرونه ذواتهم : فكل ذلك ابعد ما يكون عن الحقيقة وغير جدير باهتمام الحكيم الحق ، فعلى المرء ان يفصل ذاته عن هذا العالم باسره لكي يدرك حقيقة « اتمان » ذلك الجوهر الحقيقي للوجود الذي يتجاوز الجميع والذي يتطابق مع براهما ، اذ الخلاص يمكن ان نجده بعيدا تماما عن المجتمع في الانسحاب الكامل .

ولقد سعى بوذا كذلك الى عزل البشر عن المجتمع وعن كل رغبة وارتباط ، واسس نظاما للرهبنة دون ان يلقن اي احساس بالمجتمع . وقيل ان آخر الكلمات التي تفوه بها كانت « اصنع خلاصك باجتهادك » .

واذا شئنا استخدام عبارة اثيرة لدى الماركسيين لقلنا انه ليس من قبيل الصدفة ان الشباب العصري المغترب غالبا ما يتجه الى حكمة الهند حيث يجد واحة للارواح المغتربة ووعدا بالخلاص ، ولا يتعين على المرء ان يختار هذا الدرب لكي يدرك الحقيقة في الاديان الكبرى والتي تقوم على ان سمو الروح يتطلب ارتحالا كاملا في الاغتراب . ان هذه الرؤية لا تستتبع الاتجاه الى العالم الاخر او اي شكل آخر من اشكال الهروب على الاطلاق . والامر كما قال نيتشه على لسان زارادشت ان بوسعنا ان « نظل مخلصين للارض » .

يقول سارتر على لسان اوريست لزيوس « انحياة الانسان تبدأ على الشاطيء الآخر من اليأس » ويقول غوته على لسان بروميثيوس متحديا زيوس منذ ما يزيد على قرن ونصف قرن :

هل تتخيل من خلال المصادفة ،
انني قد امقت الحياة .
واهرع الى الصحراء .
لانه لم تتحقق ...
كافة الاحلام الوردية ؟

ان أيا من أوريست سارتر أو بروميثيوس غوته لم ينسحب الى التحدي المنعزل ، فقد اختار كلاهما ان يعاني من اجل الاخرين .

وقد نظر ماركس الذي كان يعيد مطالعة نسخته من اعمال اسخيلوس مرة كل عام الى نفسه باعتباره بروميثيوس آخر ، واراد كذلك ان يمنح الوجود رجالا

احرارا ، وقد عاش ليقول انه ليس ماركسيا ، وما كان يمكن ان تقوده آداب القرن العشرين حول الاغتراب الى ان يسحب ما اعلنه من ان « الهراء الفلسفي » حول الاغتراب لن يقدم يد المعونة لنا وبالتأكيد فان جانبا كبيرا من هذه الاداب قد صدم المجادلين القدامى صلبي الرؤوس باعتباره تهافتا عاطفيا .

ويجد المرء اغراء في أن يكون مجادلا على نحو ما كان ماركس وان يقول بأن البدل الاساسي هو بين ماركس وهيغل ، وان هيغل كان على حق بينما كان ماركس مخطئا ، فقد نظر هيغل الى الاغتراب باعتباره نبض حياة الروح ، بينما أراد ماركس ان يتخلص منه .

ويبدو لي انه من الغريب ومما يعكس افتقادا للرؤية التاريخية ان معظم الكتاب اليوم يرغبون في الرجوع الى ماركس الشاب على الرغم من انني قد انتحلت لهم الظروف المخففة . ولكننا لا نستطيع ان نعيد الساعة الى الوراء وان نعود الى هيجل .حقا انه كان يتمتع بالكثير من الحكمة وبوسعنا أن نتعلم منه ، ولكن المرء سيتعين عليه ان يكون مغتربا بالمعنى النفساني المرضي المطلق اذا ما كان يرغب في العودة اليه.

لم يكن هيجل بالطبع هو وحده الذي ادرك انه مع تزايد الحرية وانتشار التعليم وتصاعد الوعي بالذات فان الاغتراب يزداد كذلك ، فقد حذرنا افلاطون منذ زمن بعيد من انه ليس هناك تناسق مسبق بين الحرية والسعادة ، وقدم كبير المحققين الذي ابدعت شخصيته قريحة دستويفسكي هذه النقطة نفسها باقتضاب اكبر ، واعتقد كلاهما انه من الممكن بل ومن الجوهري حقا ان نميز بوضوح بين البشر وان نحتجز الحرية والتعليم الاعلى للقلة منهم ، وسعى آخرون للوصول الى علاج شامل اخر ، وآمن ماركس باقامة بنيان اقتصادي جديد ، ومن المعتقد اليوم ان البحث عن اشكال جديدة للمجتمع هو في بعض الاحيان افضل امل للوصول الى الخلاص ، ولكن اشكال الاغتراب عديدة وما من علاج واحد يناسبها جميعا ما لم تزد بصورة مفاجئة طاقات البشر .

وحتى الشعور العميق والمؤلم بالعزلة الذي يصاحب في بعض الاحيان الغربة يقابله نفس الشخص باكثر من شكل واحد ، فعلى سبيل المثال كان كيركجورد فردا خلاقا لم يعتمد بالرغم من ذلك على عمله الخلاق بل سعى ليجد المساعدة في الدين الذي قد يخفف احساسه بالاغتراب الذي ما كان يمكن احتماله بغير ذلك ، وانضم آخرون على الرغم من قدراتهم الخلاقة الى جماعات وفئات ومدارس مختلفة كما ان الجنس والصداقة والحب كلها قادرة على أن تقف على قدم المساواة مع النزعة الخلاقة .

ان كل ذلك بالغ الوضوح الى حد ان المرء ما كان ينبغي عليه ان يجد نفسه مضطرا لذكره ولكن الحديث الذي يدور حاليا حول الاغتراب يستدعي اما صورة أحادية اللون أو ثنائية بصفة عامة ، وازاء مثل هذه الآراء يتعين على المرء ان يصر على ان الاغتراب هو احدى السمات الجوهرية للوجود الانساني ــ والنزعة الخلاقة هي أحد ردود الافعال ازاءه والالتزام هو رد فعل آخر ، وكلاهما يترتب عليه المزيد من الاغتراب . وهناك اشكال عديدة للانفصال والاندماج والنزعة الخلاقة يمكنها التزام اللامبالاة ازاء المشاكل الاجتماعية بينما العمل في القضايا الاجتماعية يمكن ان يكون غير خلاق بصورة نسبية وان لم يكن ذلك بالضرورة .

ان كل من يحاول حماية الشباب من الاغتراب انما يعلن يأسه من الانسان ، وسوف يكون اكثر التزاما بروح انبياء بني اسرائيل وكونفوشيوس وسقراط ان تقول بدلا من ذلك ان الحياة دون اغتراب ليست جديرة بأن نحياها وان ما يهم هو زيادة طاقة الانسان على معالجة الاغتراب .

القاهرة